المقتطف

تدمُر

تدمر وباليونانية پلميرا (اي مدينة التمر) مدينة الى الشمال الشرقي من دمشق وعلى اربعة او خمسة ايام منها وهي في ٣٣° ٣٤' من العرض الشمالي و ١٥' ٣٨° من الطول الشرقي. بناها سليمان الملك كما جاء في الاصحاح التاسع من سفر الملوك الاول او رممها على ما رواهُ يوسيفس وجعلها محطًّا للقوافل الواردة من الهند وفارس والجزيرة الى فلسطين وفينيقية والصادرة منها اليها. واول مَنْ ذكرها من مؤرّخي الرومانيين افلينيوس في اواسط القرن الاول المسيحي فقال انها مدينة حصينة مستقلة واقعة بين المملكة الرومانية والمملكة الفارسية مطمعًا لكليهما. ثم ذكرها ايبانوس وقال ان مرقس انطونيوس اباح لجرسانهِ نهبها ففرَّ سكانها باموالهم والتجأوا الى حصن على الفرات. ثم عني بها الامبراطور ادريانوس في القرن الثاني وسماها ادريانوپوليس. وفي اوائل القرن الثالث صارت مهجرًا رومانيًّا وأُعطيت حقوق المدن الرومانية. ثم لما تغلَّب الفرس على الرومانيين واسروا الامبراطور فالاريانوس في اواسط القرن الثالث (٢٦٠) قام امير عربي او تدمريٌّ اسمهُ أُذَينة وبالاقرنجية اودبناثيوس وغزا سابور ملك الفرس اخذًا بثار الامبراطور فالاريانوس فقهرهُ واستولى على كل بلاد الجزيرة فعظم شانهُ في عين دولة رومية فملكتهُ على تدمر. ولكنهُ لم يتمتع بالملك طويلاً لان احد اقاربهِ سمهُ وهو في حمص فمات بعد ان اوصى بالملك لامرأتهِ زبنوبيا (ولعلها زينب). فما لبثت ان استوت على عرش تدمر حتى سوَّلت لها نفسها الاستيلاء على كل سورية ومصر واسيا الصغرى فلقبت نفسها بملكة الشرق وجاهرت بالعصيان على الدولة الرومانية فقصدها الامبراطور اوريليانوس سنة ٢٧٢ م وتغلب عليها وساقها اسيرة الى رومية وابقى في تدمر فرقة من الجند لحراستها ففتن عليهم بعض الاهالي وقتلوهم وبلغ اوريليانوس ذلك فحط على المدينة ودوَّخها وقتل الثائرين والمخن في اهلها. فافل نجم سعدها دفعةً واحدةً ولم تنهض بعد تلك السقطة المهولة بل دكَّت ابراجها الحصينة وتقوَّضت مبانيها الفخيمة وتهدَّمت صروحها الباذخة ولكن لم يعفُ آثارها كرور الايام ولا افنت عظمتها ايادي الدهر فقد ادهشت انقاضها واطلالها كل من رآها حتى زعم القدماء انها من

بناء الجن كشانهم في نسبة كل ما زعموهُ فوق طور البشر الى الآلهة والجان قال النابغة الذبياني

الاَّ سليمان اذ قال الاله له قم في البرية فاحددها عن الفندِ
وجيّش الجن اني قد اذنت لهم يبنون تدمر بالصفّاح والعمَدِ

وقد ذكر تدمر ابو الطيب المتنبي حين تحصن بها بنو عامر وكلاب من سيف الدولة ابن حمدان العدوي سنة ٣٤٤ هجرية بقوله

وليس بغير تدمر مستغاثٌ وتدمر حاسمها لهمُ دمارُ
ارادوا ان يديروا الراي فيها فصيحهم برأسي لا يُدارُ

وذكرها المعلم بنيامين بن يونا الاسبانيولي الطليطلي سنة ١١٧٣ وقال انهُ كان فيها حينئذٍ ٤٠٠٠ يهودي . وسنة ١٦٩١ اتاها بعض الانكليز المستوطنين حلب وصوّروا خرائبها في صُوَر كثيرة اشهروها في اوربا فصار يقصدها سياح الافرنج بعد ان اضحت عندهم امرًا لغير مسمًّى فيصلونها بعدما يلاقون انواع العذاب من حرّ الشمس وغزو البدو ويستنطقون خرائبها عن اخبار اهلها الغابرين فتجيبهم انها كانت زينة المشرق فجار عليها الزمان واهلهُ وجرّعوها غصص الدمار ثم تكاشفهم بما ابقت لها صروف الايام من النفائس وتبيح لهم ان يحملوها الى بلاد تعرف قدرها فيفعلون كما فعلوا ببابل ونينوى وكركميش وكل مدائن المشرق جريًا على الناموس الطبيعي الجازم بزيادة قوة القوي وضعف الضعيف . واشهر خرائب هذه المدينة هيكل الشمس والشارع ذو العمَد والمدافن

اما هيكل الشمس فمن افخر مباني الدنيا واشهرها ولا يفوقهُ اتقانًا الاَّ هيكل الشمس في بعلبك وهيكل زفس في اثينا . وهو على نسق هيكل اورشليم لهُ عرصة طولها ٧٣٠ قدمًا وعرضها ٧١٥ قدمًا وكان يحيط بها جدار علوهُ سبعون قدمًا في ظاهره عمد بارزة منهُ واطناف وغضون تزيدهُ بهجةً ومهابةً ولمدخلهِ رواق على عشرة اعمدة وفي العرصة على دائرها صفان من العمد تحيط بالهيكل وفي صدر كل عمود منها رف صغير مزين بالنقش الناخر وكان على كل رف صنم . اما الهيكل او القدس فواقع بقرب وسط العرصة ويحيط بهِ صف من العمد الكورنثية المضلّعة لها تيجان من نحاس فوتها اكليل ممتد عليها كلها مزخرف بافخر النقوش بالازهار والاثمار والاوراق وبطاقات منظومة كالقلائد تمسكها اشخاص مجنحة . ولم يزل بعض حائط العرصة ونحو مئة من عمدها قائمًا اما الهيكل فقائمٌ كلهُ ولكنهُ مملوءٌ باكواخ السكان الحاليين القذرة . وقد وضعنا في فهرس السنة الرابعة صورة بعض عمد هذا الهيكل

اما الشارع ذو العمد فيبتدئ من الشرق بقنطرة عظيمة ويجوز في قلب المدينة وطولهُ نحو ميل وكان فيهِ اكثر من الف وخمس مئة عمود مصطفة في اربعة صفوف متوازية يتألّف منها طريق

متوسط وطريقان جانبيان . ولم يزل مئة وخمسون من عمده قائمًا وعلى صدر كلٍّ منها رفت صغير كما ترى في الصورة (قبل هذا) وهي صورة بعض هذا الشارع وكان على كل رف منها تمثال بشخص المَا او رجلاً عظيمًا . ومَنْ يتصوَّر التدمريين في ايام عزهم يجولون بين تلك العمد وتماثيل عظمائهم وشعراتهم ونبلائهم واقفة عن يمنهم وعن يسارهم تبتسم لهم وتنهضهم الى احراز المجد والشرف ولا يتأوَّه من جور الزمان واهله

ويقول السيَّاح ان هذا الشارع من افخر مباني الدنيا وان كل مدينة قديمة من مدائن سورية كان فيها شارع يماثله ولم تزل آثار هذه الشوارع في جرش والسامرة وبصرى وافامية ودمشق

اما المدافن فابراج عظيمة منتشرة في المدينة وحواليها فالتي في المدينة مبانٍ عظيمة كالهياكل ولكنها متهدمة . والتي حواليها ابراج مربعة طول كل جانب من جوانبها من عشرين الى ثلاثين قدمًا . وفيها غالبًا اربع طبقات كل طبقة غرفة واحدة على دائرها حجرات ممتدة من ارضها الى سقفها ويفصلها بعضها عن بعض عمد دقيقة من الرخام الابيض . وكان قدماء التدمريين يحنطون موتاهم ويضعونهم في هذه الحجر ويسدونها عليهم سدًّا محكمًا ثم ينقشون اسماءهم ورسومهم على ابوابها وعلى السقف مقابلها ولم تزل هذه الكتابات باقية الى الآن واكثرها بالقلم التدمري . وهناك نقوش وزخارف بارزة بعجز القلم عن وصفها من اوراق وازهار واثمار وتماثيل وهي في رخام ابيض وما بينها مدهون بلون ازرق يزيدها بهجةً . وكل هذه الكتابات نُقشت في الثلاثة القرون الاولى المسيحية . واشهر المدافن القائمة ثلاثة يسميها العرب الساكنون تدمر الآن قصر الزينة وقصر العزبا وقصر العروس . وقد وجد القبطان برتن الذي ذهب الى تدمر منذ عشر سنوات مدافن كثيرة مطمورة بالتراب وهي على نسق المدافن المتقدم ذكرها ووجد فيها اجسادًا محنطة ونسجًا مختلفة الاصباغ وتحفًا كثيرة وشعورًا محناة وقوائم ونقودًا وغير ذلك مما يدل على قِدَم تدمر وتقدمها في المدنية

وقد بحث احد علماء الانكليز في الجاجم والعظام التي استخرجها القبطان برتن من خرائب تدمر وعرض خلاصة بحثه على مجمع الانثروبولوجي في ٢٠ ت٢ سنة ١٨٧١ وقال في خاتمتها يكاد يثبت عندي انه كان في تدمر قديمًا شعب طويل القامة جدًّا ولا شيء من الآثار التي نظرت فيها يدل على انه من الشعب العبراني . وبحث دوكاترفاج الانثروبولوجي الشهير في بعض الجاجم التدمرية فقال انها تشبه جاجم قدماء الكلدانيين ولا يبعد ان يكون سكان تدمر القدماء من اصل كلداني

هذا وخرائب تدمر في واحة كبيرة تحيط بها صحراء شاسعة تزيدها مهابةً وتحصنًا واذا قيض الله لسورية ان تعود الى ما كانت عليه من العز والعمران فلا يبعد ان تنفض تدمر غبار الذل عنها وتعود الى مجدها السابق اوالى بعضه